﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ [الأنعام: 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طلبهم آية قد تعجّل بهلاكهم

لَمَّا سلَّى اللَّهُ تعالى نبيَّه ﷺ فيما أخبرَه به من أقوالِهم بما شرحَ صدرَه، وسرَّ خاطرَه، وأَعْلَمَه تخفيفًا عليه أنَّ أمرَهم إنَّما هو بيدِه ﷻ؛ ذكرَ بعضَ كلامِهم الآيِلِ إلى التَّكذيبِ عَقِبَ إخبارِه بالبعثِ والحشرِ الَّذي يُجازي فيه كلًّا بما يفعلُ حاكيًا تعجُّبَهم الَّذي سبقَه تعجُّباتٌ فيما قالوه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الأنعام: 29]، ومن قبلُ في قولِهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: 8]. وتعجُّبُهم في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ قائمٌ على المغالطةِ والعِنادِ والمكابرة، والَّذي لا يُناسبه إلّا الجوابُ الفَصْل المُفحِمُ بقولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَةٞ﴾: الآيةُ: العلامةُ الظّاهرة، وهي مُشتقَّةٌ من التَّأيّي الَّذي هو: التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء[2]، يُقالُ: قد تأيَّيْتُ، أي: تلبَّثْتُ، وتَحبَّسْت[3].

والآيات: إشارةٌ إلى الأدلَّة، والمرادُ بـ ﴿ءَايَةٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ العلامةُ الخارقةُ الَّتي تضطرُّهم إلى الإيمانِ كنزولِ الملائكة، أو نَتْقِ الجبل أو غيرِها منَ الآيات[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/102 - 103.
(2) الرّاغب، المفردات: (أي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أيا).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/159.

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن المشركين قيلهم: لولا أُنزِلَ عليه آيةٌ من ربِّه، أي: خارقٌ على مُقتضى ما كانوا يُريدون، وممَّا يتعنَّتون، كقولِهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ إلى قولهم: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ﴾ [الإسراء: 90 - 93] الآيات، فقلْ لهم: إنَّ اللّه تعالى قادرٌ على ذلك، ولكنَّ حكمتَه تعالى تَقْتَضي تأخيرَ ذلك؛ لأنَّه لو أنزل وفقَ ما طَلَبوا، ثمَّ لم يؤمنوا، لَعاجلَهم بالعقوبة، كما فعلَ بالأُمم السّالفة، ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون أنَّ اللّه قادرٌ على ذلك، وأنَّه تركَه لحكمةٍ بالغةٍ لا تَبْلُغُها عقولُهم[1].

لا تَعارُضَ بين قُدرةِ الله وحِكْمتِه، في تأْخيرِ آياتِه بعُقوبَةِ المُعانِدين الحمقى

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الواو في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾:

صدرُ الآية عَطفٌ على جُملة: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ [الأنعام: 35]، وهو عَوْدٌ إلى ما جاءَ في أوَّلِ السّورة من ذكرِ إعراضِهم عن آياتِ اللّهِ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام: 4][2].

إعراضُ المشركين عن آياتِ الله فعلٌ مُتكرّرٌ

ذِكْرُ المفردِ ﴿ءَايَةٞ﴾ وإرادةُ الجمعِ (آيات):

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿ءَايَةٞ﴾ مع أنَّهم اقْترحوا آياتٍ مختلفةً في مجالاتٍ عديدة، ولكنَّ النَّظمَ أَجْملَها بقولِه: ﴿ءَايَةٞ﴾ اعْتمادًا على علمِها عندَ رسولِ اللّهِ ﷺ والمؤمنين، فقالَ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾[3].

إفرادُ الآيةِ دليلٌ على استمرارِهم في تكذيبِ كلِّ آيةٍ نازلةٍ

وكذلك فإنَّهم قالوا ذلك مع تكاثُرِ ما أُنْزلَ من الآياتِ على رسولِ اللّهِ ﷺ لتركِهمُ الاعْتدادَ بما أُنزِلَ عليه، كأنَّه لم يَنزلْ عليه شيءٌ منَ الآياتِ عِنادًا منهم[4].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/160.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/209.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/209.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/16.

ويمكنُ أن يُرادَ بالآيةِ هنا: آيةٌ واحدةٌ تكونُ ثابتةً بالتَّدريجِ لا تنقطعُ، وهذا إشارةٌ منهم إلى أنَّهم لا يَعدّونَ القرآنَ آيةً ولا شيئًا ممّا رَأَوْه منه ﷺ من غيرِ ذلك كما في انْشقاقِ القمر[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالضَّمير ﴿وَقَالُواْ﴾، لا بالاسْمِ الصَّريح:

التَّهكُّمُ بالمشركينَ ومُقترحاتِهم، لونٌ من تبشيع مقالهم

في ذكرِ القائلينَ بالضَّمير في قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾ دونَ الاسْمِ الصَّريح (المشركين) وجهانِ اثْنان:

الأوَّلُ: الاستهانةُ والتَّهكُّمُ بهم، وعدمُ الاعْتدادِ بأقوالِهم ومُقترحاتِهم.

الثّاني: الاكْتفاءُ بذكرِهم بالاسْمِ الصَّريح في آياتٍ تقدَّمتْ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ [الأنعام: 22].

ثمَّ جاءتِ الآياتُ تترى في بيانِ أوصافِهم منَ الكذب، وإنكارِ البعث، والظُّلم، والجُحودِ، ثمَّ جاءَ طلبُهم الآياتِ لا طمعًا في الإيمان أوْ بحثًا عن الحقِّ، وإنَّما جاء تَعْجيزًا واسْتهزاءً.

دلالة التَّخضيضِ في قولِه تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾:

﴿لَوْلَا﴾ حرفُ تحضيضٍ بمعنَى: (هلّا)، والتَّحضيضُ هنا لقطْعِ الخَصْمِ وتعجيزِه[2]، وتعجيز الرّسول ﷺ بتحدّيه تطاولٌ لا يحبّه اللّه ولا يرتضيه.

نكتةُ إيثارِ صيغةِ (نُزِّلَ) على (أُنزِل):

(نُـزِّل) أبلـغُ في السّيـاق، من حيـثُ تـكـرارُ النُّزولِ والتَّحدّي

في تشديدِ الفعلِ ﴿نُزِّلَ﴾ و﴿يُنَزِّلَ﴾ إشارةٌ إلى آيةِ القرآنِ المتكرِّرةِ عليهم كلَّ حين، تدعوهُم إلى المبارزةِ، وتتحدّاهم بالمبالغةِ والمعاجَزة، وفيه كذلكَ إشارةٌ إلى أنَّهم بَلَغوا في الوقاحةِ الغايةَ، وأنَّهم لو قالوا: لولا أُنزِلَ، أي: مرَّةً واحدة؛ لكان أخفَّ في الوقاحة، أو إلى أنَّه أَنزلَ عليهم أيَّ آيةٍ، كانتْ تُلجئُهم وتَضْطرُّهم إليه في آنٍ واحد، كما قالَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/103.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/209.

تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشُّعراء: 4]، ولكنَّه لا يسألُ ذلكَ إلّا بالتَّدريج، كما تُشيرُ إليه صيغةُ التفعيل، بأنَّ آيةَ القرآن لا تَنقضي؛ بل كلَّما سَمعَها أحدٌ منهم أو من غيرِهم طولَ الدَّهرِ كانت مُنزَّلةً عليه؛ لكونِها واصلةً إليه، فهو أبلغُ من مطلوبِهم آيةً تُنزّلُ عليه وحدَه[1]، وفي إيثار هذه الصّيغةِ دليلٌ على أنَّ المقصودَ بالآية الجمعُ لا الإفرادُ.

سببُ تذكير الفعلِ ﴿نُزِّلَ﴾ دون تأنيثه:

ذُكِّرَ الفعلُ ﴿نُزِّلَ﴾ مع أنَّ الفاعلَ ﴿ءَايَةً﴾ مؤنَّثٌ؛ لأنَّ تأنيثَ ﴿ءَايَةً﴾ غيرُ حقيقيٍّ، وحَسُنَ للفَصل، فاجتمعَ مُسَوِّغانِ لتجريدِ الفعلِ من علامةِ التَّأنيث، فإنَّ الفصلَ وحدَه مُسوِّغٌ لتجريدِ الفعل منَ العلامة[2].

دَلالةُ اسْتعمالِ حرف الاستعلاء ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

أفادَ النَّظمُ أنَّ الآيةَ المطلوبَ إنزالُها عُلْويَّةٌ سمائيَّة

اقْترانُ الآيةِ بالتَّنزيلِ مع العُلْويَّةِ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ قويٌّ على أنَّ المرادَ بالآية هنا ما هو منَ الخوارق الموجِبَةِ لهلاكهم، كإنزالِ ملائكةِ العذاب، أو نارٍ مُحْرِقةٍ منَ السَّماء، أوْ حجارةٍ من سِجّيلٍ تجعلُهم كَعصْفٍ مأكول، أوْ سَنا برقٍ يذهبُ بالأبْصار، أو نحوِ ذلك ممّا ينزلُ من عُلْوٍ إلى سُفْل[3].

نكتةُ إيثارِ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَيْهِ﴾:

تهكُّمُ المشركين مآلُه الاعترافُ بالحقِّ

استُعمل ﴿عَلَيْهِ﴾ دون (إليه)، مع أنَّ الظّاهر استعمالُ حرف انتهاء الغايةِ، ذلك أنَّه استُعمل حرفُ ابتداء الغاية: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ فهي تفيدُ ابْتداءَ غايةِ الإنْزال، أي: الإنزالُ من الله تعالى، والابتداءُ له انتهاءٌ، لكنه عدلَ عن ذلك باستعمال حرف الاستعلاء، ونكتةُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/103 - 104.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/16.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202.

ذلك التَّعرُّضُ لعنوانِ رُبوبيَّته تعالى المُشعِرِ بالعِلِّيَّةِ[1]، وأنَّ القومَ اعترفوا ضِمنًا بأنَّ الإنزالَ فيه تشريفٌ لمن نزل عليه الحقُّ، أو أنَّهم يذكرون ذلك من قَبيل التَّعريض بالنَّبيِّ ﷺ - أي: فيما يزعمُ - فيكونُ تهكُّمًا من جهتِهم، وغايةَ الوقاحةِ في ازْدرائهم.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على نائبِ الفاعل:

في قولِه تعالى: ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةً﴾ تقدَّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْهِ﴾ على نائبِ الفاعل ﴿ءَايَةً﴾ والأصلُ تأخُّرُه، وذلك بقصدِ قَصْرِ الإنزالِ عليه خاصَّةً لا على غيرِه[2].

قـصـر الإنـــزال عليه ﷺ دون غيره

سرُّ تأخيرِ قَيْدِ ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾:

في تأخيرِ قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ إشعارٌ بالمحسنِ إليه ﷺ على حسب ما يدَّعيه، أي: لِنستدِلَّ بها على ما يقولُ من التَّوحيدِ والبعث، وفي ذلكَ أيضا تَهكُّمٌ من المشركين، وإعلانٌ مقدَّمٌ عن عدمِ إيمانِهم، ولو جاءَ بتلك الآية[3].

الإشـــعـــارُ بـالـنُّـكـوصِ عن الإيـــمـــانِ بـها سَـلـفًـا، لـكـونه طبعا فيهم

إيثارُ عُنوانِ الرُّبوبيَّةِ على الأُلوهيَّة ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾:

آثر النَّظمُ ذكر الرُّبوبيَّة في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾؛ لسببَيْن اثْنَيْن:

الأوَّلُ: إيمانُ المشركينَ بتوحيد الرُّبوبيَّةِ دون توحيدِ الأُلوهيَّة، فهم يُعْنَوْن بما يؤمنون، ولو قالوا: (مِنَ اللهِ)؛ لأشعر ذلك بإيمانِهم باللهِ تعالى.

إنـــزالُ الآيـــاتِ مـن مقتضياتِ الرُّبوبيَّةِ الدَّالَّةِ عـلـى الـقـدرةِ والحكمةِ

الثّاني: إنزالُ الآياتِ لتحقيقِ مصالحِ العباد، وهي جَلْبُ المنافعِ ودَفْعُ المضارِّ، وخاصَّةً في قضيَّة الإيمان وهذه من معاني الرُّبوبيَّة، وهم فيما يزعمون أنَّهم إن أُنزلتْ هذه الآيةُ الَّتي يطلبون؛ فسيؤمنون، وإن كانوا في واقع الحال مُتهكِّمين كاذبين.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/103.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/103.

دلالةُ إضافةِ (ربّ) إلى ضميرِ النَّبيِّ ﴿رَّبِّهِۦ﴾:

في إضافةِ (ربِّ) إلى ضميرِ النَّبي ﷺ في قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تعريضٌ بتهكُّمِهم به[1] ﷺ، أي: إنْ كنتَ يا محمَّدُ ﷺ مُرسَلًا من ربِّك؛ فأثبتْ ذلكَ بنزولِ آيةٍ عليكَ ممَّن تدَّعي أنَّك رسولُه إلينا.

إنكار المشركين دائمًا لرسالة النّبيّ ﷺ

بلاغةُ فصلِ جملةِ المقاوَلة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

يرى ابنُ عاشور أنَّ الفصلَ هو استعمالٌ عربيٌّ، وهي عادةُ القرآنِ، ويصرِّح بأنَّه غيرُ مسبوقٍ إلى هذا الكشفِ في هذا الأسلوبِ القرآنيِّ الفريدِ، حيث وجَّه الفصلَ بقولِه: "فَصَلَ الجَوابَ، ولَمْ يَعْطِفْ بالفاءِ أَوِ الواوِ جَرْيًا بِهِ عَلَى طَرِيقَةٍ مُتَّبَعَةٍ في القُرْآنِ في حِكايَةِ المُحاوَراتِ، وهيَ طَرِيقَةٌ عَرَبِيَّةٌ قالَ زُهَيْرٌ:

قيلَ لَهُمْ أَلا ارْكَبوا أَلا تا*** قالوا جَميعًا كُلُّهُمْ ألافا

أَيْ: فارْكَبوا، ولَمْ يَقُلْ: فَقالوا، وقالَ رُؤْبَةُ بْنُ العَجّاجِ:

قالَتْ بَناتُ العَمِّ يا سَلْمَى وإِنْ*** كانَ فَقيرًا مُعْدِمًا قالَتْ وإِنْ

وَإِنَّما حَذَفوا العاطِفَ في أَمْثالِهِ كَراهِيَةَ تَكْرِيرِ العاطِفِ بِتَكْرِيرِ أَفْعالِ القَوْلِ؛ فَإِنَّ المُحاوَرَةَ تَقْتَضِي الإِعادَةَ في الغالِبِ، فَطَرَدوا البابَ، فَحَذَفوا العاطِفَ في الجَمِيعِ، وهوَ كَثِيرٌ في التَّنْزِيلِ، ورُبَّما عَطَفوا ذَلِكَ بالفاءِ لِنُكْتَةٍ تَقْتَضِي مُخالَفَةَ الاسْتِعْمالِ، وإِنْ كانَ العَطْفُ بالفاءِ هوَ الظّاهِرَ والأَصْلَ، وهَذا مِمّا لَمْ أَسْبَقْ إِلَى كَشْفِهِ مِنْ أَساليبِ الاسْتِعْمالِ العَرَبِيِّ"[2].

حذف العاطف أسلوبٌ قرآنيٌّ في حكايةِ المحاورات

غرضُ توكيدِ جملةِ مَقولِ القول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ﴾:

في الاقْتِصارِ في الجوابِ على بيانِ قُدرتِه تعالى على تنزيلِ الآيةِ مع أنَّها ليست في حيِّزِ الإنكارِ – فهم لا يُنكرون أنَّ اللّٰه قادرٌ؛ ولذلك سألوا الآية – للإيذانِ بأنَّ عدمَ تنزيلِه إيّاها مع قدرتِه عليها لحكمةٍ

التَّوكيدُ بأنَّ قدرةَ اللهِ تعالى في الإنفاذِ، مَنوطةٌ بالحِكمة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/401.

بالغةٍ يجبُ معرفتُها، وهم عنها غافلون، كما يُنبئُ عنه الاسْتدراكُ القادمُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

بلاغةُ العدولِ عن (ربّي) إلى لفظِ الجَلالَة ﴿ٱللَّهَ﴾:

التَّعريفُ بصاحبِ الرُّبوبيَّة الحقَّة

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ عدولٌ عن الرُّبوبيَّة في (ربّي) إلى الألوهيَّة، وفي ذلك بلاغةٌ جليلةٌ فائقةٌ وهي أنَّ إظْهارَ الاسْم الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾ لتربية المهابةِ في النُّفوسِ مع ما فيه من الإشعارِ بعلَّةِ القُدرةِ الباهرةِ من اللهِ المعبودِ بحقٍّ، لا معبودَ بحقٍّ سواه[2]، وتعليمِ المخاطبين بأنَّ ربي - الذي تُنكرون وحدانيتَه على الوجه الحقِّ هو اللّه تعالى - قادرٌ على ما طلبتُم.

سرُّ اسْتعمالِ حرفِ الاسْتعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾:

الإشارَةُ إلى إنزالِ العقوبةِ بالمشركينَ إنْ لم يؤمنوا

ذُكِرَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ حرفُ الاسْتعلاءِ ﴿عَلَىٰٓ﴾ متوسِّطًا بين القُدرةِ وإنْزالِ آية؛ إشارةً إلى المشركينَ أنَّ اللّه قادرٌ على إنزالِ العقوبةِ بهم كذلك؛ إنْ لم يؤمنوا، وخاصَّةً؛ إذا كانتِ الآيةُ تضطرُّهم إلى الإيمان، كنَتْقِ الجبلِ على بني إسرائيلَ الَّذين نَكثوا عَهْدَ إيمانهم، وجَحَدوا بآيات ربِّهم[3].

سرُّ التَّعبيرِ عن الإنْزالِ بأنْ والفعلِ المضارعِ دونَ المصدر:

التَّلويحُ بالعقوبةِ النّافذةِ بالمشركين، صدق في وعيد المكذّبين

وردَ الفعلُ المضارعُ ﴿يُنَزِّلَ﴾ بعدَ ﴿أن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾، دون التَّعبيرِ بالمصدرِ (إنزال) بدلَ المضارع، والسِّرُّ في هذا التَّعبيرِ: هو أنَّ الفعلَ المضارعَ يَدُلُّ على أمرَيْن: الأوَّلُ: حدوثُ الإنزال، والثّاني: زمنُ وقوعِ الإنزال، وهو ما لا يدُلُّ عليه المصدرُ (إنزال)؛ إذ يتحقَّقُ فيه الحدوثُ دونَ زمنِه[4]، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَ الآيةِ قد يقعُ في أيِّ وقتٍ، فهو تلويحٌ بالعقوبةِ النافذة.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/210.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/16.
(4) ابن هشام، شرح شذور الذَّهب، ص: 18، 491 - 492.

فائدةُ تكرارِ لفظِ ﴿ءَايَةٌ﴾ وتنكيرِها:

الآيةُ الثَّانيةُ عَيْنُ الأولى، وفيه إبطالُ القولِ بالتَّغايُرِ

إعادةُ لفظِ ﴿ءَايَةٌ﴾ بالتَّنكير في قولِه: ﴿أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ من بابِ إعادةِ النَّكِرَةِ نكِرَةً، وهي عَيْنُ الأولى، وهذا يُبطِلُ القاعدةَ المُتداولَة بين المُعربين: من أنَّ اللَّفظَ المُنكَّرَ إذا أُعيدَ في الكلام مُنكَّرًا؛ كان الثّاني غيرَ الأوَّل، ومثالُ إعادةِ النَّكرةِ نكرَةً - وهي عَيْنُ الأولى لا غيرُها - قولُه تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الرّوم: 54][1]. و﴿ضَعْفٍ﴾ الثَّانية هي عَيْنُ الأولى.

فالآيةُ الأولى الَّتي طلبَها المشركون هي عَيْنُ الثّانيةِ الَّتي أكَّدَ النَّظمُ قدرةَ اللّهِ على إنزالِها، وإلّا لَما كانَ لوجهِ إعادةِ ﴿ءَايَةٌ﴾ مُحاطةً بالقُدرةِ على الإنْزالِ أيُّ فائدة[2].

غرضُ عطفِ جملةِ الاستدراكِ على مقولِ القَوْل:

الجمعُ بين قدرةِ الله تعالى ورحمتِه بعبادِه

الغرضُ من عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على جملةِ مقولِ القولِ، الجمعُ بين قدرةِ اللّه تعالى ورحمته، فالمعنَى: أنَّه تعالى قادرٌ على أن يُنزِّلَ آيةً من ذلك، أو آيةً أيَّ آية، ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون، فلا يَدْرونَ أنَّ عدمَ تنزيلِها مع ظهورِ قدرتِه تعالى عليها لِما أنَّ في تنزيلِها قَلْعًا لأساسِ التَّكليفِ المبنيِّ على قاعدةِ الاختيار، أوِ اسْتئصالًا لهم بالكُلِّيَّةِ، فيقترحونَها جَهْلًا، ويَتَّخذونَ عدمَ تنزيلِها ذريعةً إلى التَّكذيب[3]، ففيه تنبيهٌ لهم على أنَّ عدمَ إجابتِهم فيه فائدةٌ لهم ورحمةٌ بهم، وهو اسْتبقاؤهم، فيحسَبونَ أنَّ عدمَ إجابتِهم إلى مُقترحِهم يدلُّ على عدَمِ صدقِ الرَّسولِ ﷺ وذلكَ من ظُلمةِ عقولِهم، فلقدْ جاءهم من الآياتِ ما فيه مُزْدَجَر[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/212 - 213.
(2) ابن هشام، مغني اللَّبيب: 2/656.
(3) أبو السِّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/210.

دَلالةُ التَّعبير بلفظ (أكثر) في السّياق:

بعض المشركين يعلمون الحقَّ، وهـم مـا بين مكابرٍ ومستعدٍّ للهداية

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جاءَ تخصيصُ عدمِ العلمِ بأكثرِهم لما أنَّ بعضَهم واقفونَ على حقيقةِ الحال، وإنَّما يُظهرون خلافَه مكابرةً وعناداً[1]، ومنهم من عنده استعدادٌ للهداية فهي من قبيل تثبيت دعائم الهدايةِ في قلوب بعض المشركين، ممَّن أراد اللّه هدايتَه.

دلالةُ إضافةِ (أكثر) إلى الضَّميرِ دونَ الاسمِ الظَّاهر:

الرَّبطُ بين فاصلةِ الآيةِ وصدرِها، بـالإشـارةِ إلى فريقٍ واحد منَ المشركين

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أتى لفظُ (أكثر) مضافًا إلى الضَّمير (هم)، فلم يَقُلْ: (أكثرَ المشركين)؛ لأنَّ الَّذين طلبوا الآيةَ فريقٌ خاصٌّ منَ المشركين، وهمُ الَّذينَ أشارَ إليهم النَّظمُ في صَدْرِ الآية بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾، وهم أصحابُ المُقْتَرَحات، وطلبِ الخوارقِ والمعجزاتِ، ولكنَّ اللّه مع قدرتِه على ما يَطلُبون، فإنَّ الحكمةَ تقتضي عدمَ إنزالِها[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المشركين كانوا على درجاتٍ في العداوةِ والتَّصدّي لدينِ اللّه تعالى.

ولم يقلْ كذلك: (ولكن أكثر النّاس لا يعلمون)، ولو قال ذلك؛ لكان انتقالاً منَ الحديثِ الخاصِّ عن المشركين، إلى عمومِ النّاس، وهذا ما لم تُردْه الآيةُ الكريمةُ.

نكتةُ نفيِ العلمِ دونَ الإيمان ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

أكثرُ المشركين لا يَعلَمون، ومن جهل شيئًا عاداه

جاءَ قولُه تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ دونَ قولِه: لا يؤمنون؛ لأنَّ الجميعَ في واقعِ الحالِ مشركون لا يؤمنون، فهم بعيدونَ عنِ الإيمانِ بالكُلّيَّة، ولكنَّ الَّذين لا يعلمونَ فريقٌ منهم، أي: لا يَدْرونَ أنَّ عدمَ تنزيلِ الآيةِ مع ظهورِ قدرتِه تعالى إنَّما هو دليلٌ عليهم لا لهم، وحُجَّةٌ عليهم بأنَّهم يتَّخذونَ عدمَ تنزيلِها ذريعةً إلى التَّكذيب[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/17.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.

نكتةُ إيثارِ النَّفي على الإثباتِ، في قولِه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

نفيُ العلمِ عن المشركين، إشارةٌ إلى اللُّطفِ بهم من ربّ العالمين

آثَرَ النَّظمُ نفيَ العلمِ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ على إثباتِ الجهلِ في حقِّهم، فلم يقُلْ: (يَجهلونَ)، وعدمُ العلمِ هو جهلٌ، وذلك لما في نفي العلم دون إثبات الجهل منَ التَّلطُّفِ بالمخاطَب؛ استدراجًا للإيمانِ، وحثًّا له على الإقبال، ولما فيه من إثباتِ العلمِ للمؤمنين بصريح اللَّفظِ المنفيِّ عنِ المشركين.

غرضُ حذفِ مفعولِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

جهلهم يُطبق على جميع نواحي المعرفة

حُذفَ المفعولُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهو إمّا مطروحٌ بالكُلّيَّة، لا وجودَ له أساسًا، أو هو مُقدَّر، أي: لا يعلمونَ شيئًا، فهو محذوف مدلولٌ عليه بقرينةِ المَقام، والمعنَى: أنَّه تعالى قادرٌ على أن يُنزِّلَ آيةً من ذلك، أوْ آيةً أيَّ آيةٍ، وعلى عدمِ تنزيلِها، لما أنّ في تنزيلها قلعًا لأساسِ التَّكليفِ المبنيِّ على قاعدةِ الاخْتبار، أوِ اسْتئصالًا لهم بالكلّيَّة، فيقترحونَها جهلًا[1].

ويمكنُ أن يكونَ غرضُ حذفِ مفعولِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ الإشارةَ إلى زعْمِهم أنَّ عدمَ إجابتِهم لما اقْترحوه علامةٌ على أنَّ اللّٰه لم يُصدِّقِ الرَّسولَ ﷺ في دَعْوى الرِّسالة، فهم في هذه الحالِ لا يعلمونَ وجهَ الارْتباط بين دَلالة الآيةِ ومَدْلولِها، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ فيهم من يعلمُ ذلكَ، ولكنَّه يكابرُ، ويُظهِرُ أنَّه لا يتمُّ عنده الاسْتدلالُ إلّا على نحوِ ما اقْترحوه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآية والسُّلطان والبُرهان:

الآيةُ: العلامةُ الظّاهرة، وهي مشتقَّةٌ منَ التَّأيّي الَّذي هو التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء[3]، والسُّلطانُ: إظهارُ ما يُتسلَّطُ به على نقيضِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/211 - 212.
(3) الرّاغب، المفردات: (أي)، وابن منظور، لسان العرب: (أيا).

المعنَى بالإبطال، والبُرهان: إظهارُ صحَّةِ المعنَى وإفسادُ نقيضِه[1]. وبهذا يتبيَّن أنَّ السُّلطانَ والبُرهانَ متقاربان.

الآيـــةُ عـلامـة ظـــاهـــرة، والـسُّـلـطـانُ هيمنة بنقيض المعنى، والبُرهان إبطال نقيضه

وأمّا الآية؛ ففيها زيادةُ معنَى: وهو ظُهورُ العلامةِ الفارقة، والتَّثبُّتُ منَ الشَّيء والإقامةُ عليه، وهذا ما طلبَه المشركون من إنزالِ علامةٍ ظاهرةٍ يَرَوْنَها كإنزالِ الملائكة، أو نَتْقِ الجبلِ أو غيرِ ذلكَ منَ الآياتِ الَّتي اقْترحوها، كما وردَ في آياتٍ عديدة.

العلم والفقه:

الكافر بعيد عن مُدْرَكاتِ العُلومِ فضلًا عن فقْهِهَا

العلمُ: هو اعتقادُ الشَّيءِ على ما هو به على سبيلِ الثِّقةِ، كان ذلكَ بعدَ لَبْسٍ أوْ لا.

وهو يُحقِّقُ المعلومَ، ويتناولُ الموجودَ والمعدوم، فالعلمُ يقعُ بالمعدومِ، ولا يُدرِكُ إلّا الموجود.

والعلمُ لا يُضافُ إلى ما عندَ أحدٍ إذا كان المعلومُ في نفسِه على علم، وسُمّيَ علمُنا: يقينًا؛ لأنَّ في وجودِه ارتفاعَ الشَّكِّ.

والعالمُ بالشَّيءِ على ما هو به كالعاقدِ المُحكِم لما عَقَدَه، ومثلُ ذلك تسميتُهم العلمَ بالشَّيءِ حفظًا له. وحقيقةُ العالمِ هو مَنْ يَصحُّ منه فعلُ ما علمَه مُتيقِّنًا؛ إذا كان قادرًا عليه[2].

وأمّا الفقهُ: فهو العلمُ بمقتضى الكلام على تأمُّلِه، ولهذا لا يُقالُ: إنَّ اللّهَ يَفْقه؛ لأنَّه لا يوصفُ بالتَّأمُّل، وتقولُ لمن تخاطبُه: تفقَّهْ ما أقولُه، أي: تأمَّلْه لتعرفَه، ولا يُستعمَلُ إلّا على معنَى الكلام، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف: 93].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 108، والجرجانّي، التَّعريفات، ص: 35، وهنري لامنس، الفرائد، ص: 34.

(2) الفروق اللّغوية، ص: 57، 343، 373، 374، وأبو القاسم الحسينّي، الكلّيّات: 3/204، 4/296، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 160.

وسُمّيَ علمُ الشَّرْع: فقهًا، والعالمُ به فقيهًا؛ لأنَّه مبنيٌّ على معرفة كلامِ اللّٰهِ تعالى وكلام رسولِه ﷺ[1].

ولذلك كلِّه نفتِ الآيةُ عن المشركينَ العلمَ؛ لأنَّه لا يوجد عندَهم اعْتقادٌ صحيحٌ عنِ اللّٰه ورسوله، ومن ثَمّ فَهُمْ أبعدُ عنِ الفقهِ والتَّأمُّل.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 412، 313، وابن منظور، لسان العرب: (فَقِهَ).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»